

# أفكار

A F K A R

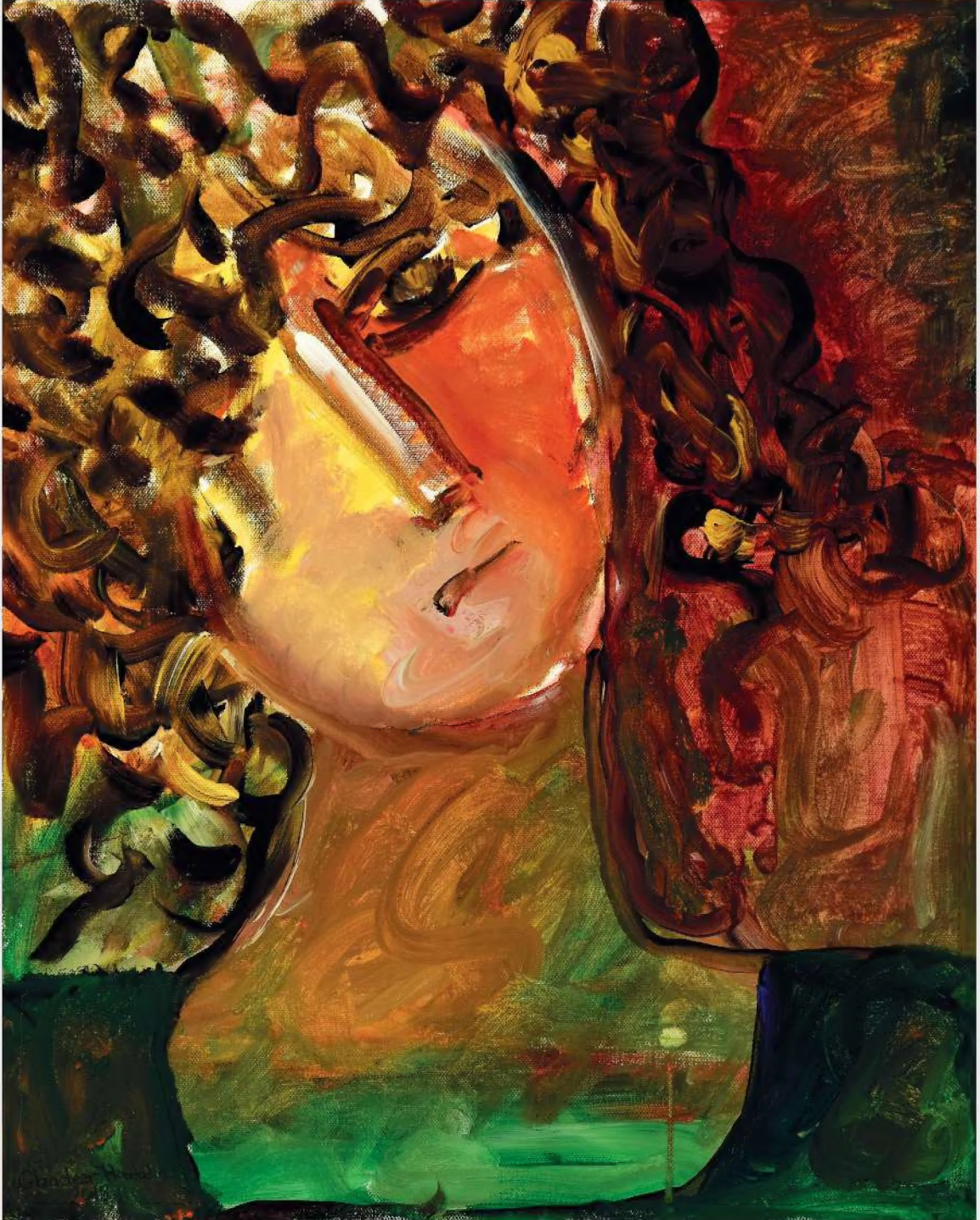
ملف العدد

فيلسوف الانتباه: "قراءات في تجربة الكاتب خيرى منصور"

نيسان 2022 | العدد 399

ثقافية شهرية - تصدر عن وزارة الثقافة

المملكة الأردنية الهاشمية منذ 1966



399

## المتنبي ورهانات القراءة الجديدة: (شعرية الصّراع) ملفّح الحويطات نموذجًا

عامر سلمان أبو محارب\*

في كتابه "شعرية الصّراع: مقارنة نصّية في شعر المتنبي" استطاع ملفّح الحويطات، وفي ظلّ الإشكالات الكبرى التي تعيشها النظرية النقدية العربية، أن يخلق هامشًا بحثيًا جديدًا في تجديد "ذكرى أبي الطيّب المتنبي" بلغة طه حسين حين كتب "تجديد ذكرى أبي العلاء"، بما يطرحه من طروحات نقدية جادة في كتابه، واستطاع الحويطات أن يُعيد الاشتباك مع شعر المتنبي من جديد، غير أن على المرء أن يذعن لقول مؤداه أن بعضًا أو قُل كثيرًا من أسرار شعر المتنبي لما تزل عصيةً على الكشف، غامضةً أمام كل هذه القراءات المتعاقبة.

أطلق خالد الكريّ في دراسته القيمة عن المتنبي "الرونق العجيب: قراءة في شعر المتنبي" (2008) مقولةً مؤثرةً في الدرس النقدي المعاصر مؤداه أن شعر المتنبي يستمد سرّه من "الرونق العجيب" بلغة الجاحظ، وهي قوله تتصادى مع القولة المركزية في الأرشيف النقدي الذي كتب حول المتنبي بوصفه شاعرًا "ملأ الدنيا وسغل الناس"، وهكذا يبدو شعر المتنبي منفحًا وفقًا لهذا المفهوم على فكرة بلاغة المحتمل أو المتعدّد، أي أنه يمثّل مراحًا لإعادة الاشتباك معه من جديد، في سبيل تلمّس كنهه العجيب والمختلف والآسر!

وفي هذا السياق يُعيد ملفّح الحويطات في دراسته الرائنة "شعرية الصّراع: مقارنة نصّية في شعر المتنبي" (\*) قراءة المتنبي من منظور يزواج بين الالتفات إلى النصّ وسياقه في الآن عيّنه دون أن يُعزّل أحدهما عن الآخر بوصفهما صنوانين لا ينفصلان.

وإذا كان الشّعر العربيّ في أزمنته المتعددة والمتقلّبة يمتاز بكونه متوتّرًا وقلقلًا، على الدوام، فإنّ انتخاب ملفّح الحويطات لثيمة الصّراع Conflict لتكون محور مقاربتة لشعر أبي الطيّب المتنبي يمثّل اختيارًا واعيًا بالموضوعة التي تلتئم عليها القصيدة الشعرية عند المتنبي؛ فالصّراع يمثّل بؤرة مركزية في فكر الشاعر، وهو كذلك أحد الشّيفرات النّسقية التي يتمحور حولها شعره، فضلًا عن كونه يمثّل أبرز العلامات السيميائية semiotic signs الدالة والمتكررة في إمبراطورية القصيدة/ الشعر التي أسسها المتنبي بلغة "رولان بارت" في إمبراطورية العلامة The Empire of signs، وهي: الشاعر، والسّلطة، والتابع، والأنا، والآخر.

ولعلّه من نافل القول الإشارة إلى أن شعر المتنبي يقع في منزلة بين المنزلتين، وهو ما يزيده ألقًا ويضفي إليه ما يحقق له "الرونق العجيب" كما يشير الجاحظ في "البيان والتبيين"، أي أنه وفقًا لذلك يفتح كما يشير إلى ذلك "جاك دريدا" في إلماعه إلى مفهوم الشبكية، بين الممكن واللاممكن، والمتوقع واللامتوقع، إنه هكذا وفي حالة من التّضاد المدهش يمثّل في اللحظة عيّنها اللاشيء والشيء كذلك! ولذا فإنه لما يزل مزنرًا بسحرٍ خاص، يجعله مشرّعًا أمام

\* باحث أردني

amer99888@yahoo.com



النظريات النقدية المختلفة في سبيل تلمّس سرّه المكنون، أو اكتشاف كُنْهه المخبوء.

ولأنّ في طيّات العناوين وبدايات الكتب فتنةً وعُجباً كما يقول أبو عمرو الجاحظ، فإنّ القارئ لكتاب الحويطات يلحظ أنه أوّل عناوين دراسته الرئيسة والفرعية غير قليل من عنايته واهتمامه، ويلحظ أنّ العناوين التي اختارها الحويطات لكتابه ذات أبعادٍ سمائية دالة ومتسقة مع طرحه المنهجي، وهي عنوانات انعكست على صَفْحَتها مجالات الانشغال المنهجي الذي يحكم عمل الحويطات التّقدي، وهذه العناوانات: (القيمة الشعرية وتعميق الاختلاف، والأنا وإرادة القوة، والخطاب المقنّع، والخطاب السّافر، والفصل الثالث: صراع الأنا والزّمن، والحسّ المأساوي في مواجهة الزمن، جدل الحب والموت، والأنا وقَيْد المكان، وبلاغة التضاد)، وبالنظر إلى إهداء الحويطات كتابه الراهن، نقرأ على صفحة الإهداء قوله:

(إلى خالد الكري المسكون بحبّ المتنبي و"رونقه العجيب")

وليس بدعاً من القول إنّ الإهداء عند السّيميائيين يُعدّ علامةً إشاريةً، وعتبةً خطابيةً منتجةً، تفتّح على عددٍ من الدّلالات والمعاني، إذ يبدو كتاب الرّونق العجيب الذي كتبه خالد الكري عن شعر المتنبي مولدًا للإبداع، وشرطًا حتميًا للعبور، من أجل فتح كوى كاشفة، تعين الناقد على إعادة اكتشاف/ قراءة شعر أبي الطّيب المتنبي من جديد. وبالنظر إلى اختيار الحويطات لخالد الكري، ليقدم له دراسته، فإننا ندرُك وعي الحويطات بثقافة الاختيار أو جماليات الانتخاب الثقافي، وأهمّيتها في منح دراسته قيمةً إشهاريةً مائزة، إذ يمثّل المتنبي الموضوعَ المركزيّة في نقد خالد الكري، ومشروعه، وفكره، وأدبه كذلك.

ويبدو أنّ الحويطات نجح في اختياره الكريّ ليكون كاتب العتبة التّأسيسية بما هي عليه بوصفه تقدّمًا/ تقرّضًا، إذ يفتّح الكريّ كتاب الحويطات بمقدمة مُهمّة، يقول فيها: "يُشكّل هذا الكتاب حالة متميّزة بين الدراسات الجديدة عن شعر المتنبي"، ويقول: "وبين مؤيدي أبي الطّيب والمعجبين بشعره وأولئك المبغضين له ولإبداعه، سار مفلح الحويطات حول حمى أبي الطّيب الشّاعر (الإشكالي) كما يقول، واختار (النّصّ الشعري)، ولم يقف عند معطيات السّياق الخارجي... من هنا أرى أنّ مقدمة الكتاب مُحكمة، والصّياغة دقيقة، والأسلوب بيّن الجودة" (ص7)، وفي هذا الذي ذهب إليه الكريّ تكريسٌ لمقولة التّجديد التي بنى الحويطات على أسس منها دراسته الراهنة.

وتمثّل اختيارات الحويطات في هذا الكتاب، على تعدّدّها وغناها، ملمحًا مائرًا، في خطابه النقدي الراهن، وذلك يتجلّى في التفاته لموضوعة شعريّة الصّراع ابتداءً، وشعر المتنبي ثانيّةً، وما يلي ذلك، من اختيار الكريّ لتقديم الكتاب، واستصفاء أبيات بعينها مادةً للقراءة والتحليل، وانتهاءً بتخيّر ديوان المتنبي صنعةً عبدالرحمن البرقوقي، إذ يمثّل جلّ ذلك وعيًا يستطلب الإشارة والإشادة.

ويكشف المستوى الإجرائي في هذا الكتاب عن تمثيلات قارئ/ ناقد مُختلف، يملك وعيًا نقديًا مائرًا يجعله قادرًا على تحليل النّصوص، وفكّ شيفراتها، وإضاءة معمّياتها، والقبض على إشارياتها النّصيّة/ المحتملة.

وفقًا لذلك يجيء هذا الكاتب في خمسة فصول، على النحو الآتي: الفصل الأول: (صراع الأنا والآخر)، والفصل الثاني: (صراع الشّعر والسّلطة)، والفصل الثالث: (صراع الأنا والزّمن)، والفصل الرابع: (صراع الأنا والمكان)، والفصل الخامس:

(الصِّراع في البنية).

في الفصل الأول: (صراع الأنا والآخر) يعاين الحويطات تمثيلات الأنا المتورّمة أو الفاعلة ومركزيتها في الصراع مع الآخر في شعر المتنبي، إذ تمثل "النُّبوة الشعريّة"، و"حيازة ملكة البيان"، و"تفرّد الذات"، علامات دالة، وأقنعة نسقيّة، ووسيلة ناجعة في الرّد بالكتابة، ووفقاً للرؤية النسقيّة التي يتبنّاها المتنبي في صراعه مع الآخر، ولا ريب أنها تمثل كذلك، فضلاً عما أشار إليه الحويطات، رموزاً للذات في أتون اللعبة الرّمزيّة التي يؤسس لها مؤلّف العمل الأدبيّ كما في الدراسات السيميائية المعاصرة. ولعلّ صراع المتنبي مع الآخر يتجلى في بيتين شعريين، يجعلهما الحويطات عتبة نصيّة/ نقدية، يفتح بهما هذا الفصل، إذ يقول المتنبي:

وَمَا صَارَ وَدَّ النَّاسِ خِبَاءً      جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ  
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ      لَعَلَّمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

إنّ المتنبي هنا ووفقاً للإشارات السابقة والقوائد التي انتخبها الحويطات في هذا الفصل يؤسس للصوت المختلف، ولذا فإنّ قصيدته تنبني وفقاً لهذا المسار على فاعليّة تقويضيّة مضادة، تُؤسّس مبدأ مركزيّة الذات - Center cism التي تمثل نموذجاً مختلفاً، وصوتاً مضاداً، في وجه السّلطة المركزيّة، وإن كانت تمارس عليها ضرباً من المخاتلة والتّعمية، التي تستند إلى بلاغة المجاز وجماليّات النصّ/ الشعر.

وفي الفصل الثاني (صراع الشعر والسّلطة) يجليّ الحويطات تمثيلات "مبدأ الرّفص والاختلاف" في شعر المتنبي، وذلك عبر طقسيّة المديح ومخاتلات التّسق، عبر تأثيل خطاب حجاجيّ معارض، "سافر" تارة، و"مقنّع" تارة أخرى، إذ تضرمر القصيدة عند المتنبي موقفاً مناهضاً للسّلطة، وهو ما يجليه نسق الذات الاستعلائيّة، التي تملك سلطة المعرفة وقوّتها The Power of Knowledge، كما يشير إلى ذلك "ميشيل فوكو"، فباله سلطة عمياء، لا يمكنها مجاراة الذات، معرفة ورؤية، ولعلّ بيت المتنبي الدّائع يمثّل بؤرة لهذه الرؤية، إذ يقول:

وَقُودِي مِنَ الْمَلُوكِ وَإِنْ      كَانَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعْرَاءِ

وفي قوله كذلك:

لَا تَجَسُرُ الْفُصْحَاءُ تُنْشِدُ هَهُنَا      بَيْتًا وَلَكِنِّي الْهَزْبُ الْبَاسِلُ  
مَا نَالَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ كُلُّهُمْ      شِعْرِي وَلَا سَمِعْتُ بِسَحْرِي بَابِلُ

وهنا يؤكّد الحويطات أنّ المتنبي بوصفه شاعراً متحوّلاً، اتّخذ من جماليّات المجاز/ الشعر، أداة تعينه في نقد/ انتقاد، وتأكيد صراعه واختلافه الرّؤيويّ كذلك معها، ذلك أنّه يملك رؤية كونية، تحتكم إلى قانون النور والإبصار/ المعرفة والبيان/ الشعر، في حين أنّ السّلطة لا تملك المعرفة/ القدرة على أن تميّز الشعر/ الكلام، بسبب ضلالها، وزيفها، وابتعادها عن جادة الصّواب.

وفي هذا السياق تبرز إشكالية السيف والقلم، التي تمثل انعكاساً لإشكاليّة المثقّف والسّلطة في العصر العبّاسي، وهنا ينتصر المتنبي للشعر/ السّحر الحلال، على الكتابة بوصفها وظيفة مركزيّة في البلاط العبّاسي، في ضوء تحولات الوظيفة بين الشاعر والكاتب، بيد أنّ الكتابة من منظور المتنبي لا توازي الشعر؛ قيمة، ووظيفة، وشأواً، ورؤية للكون والوجود، فضلاً عن نزعتها التّحريريّة التي تفتقد عند الكاتب/ الكتابة، في حين أنّ الشاعر هو وحده من يملكها، وهو ما ألح

إليه أدونيس في قوله:  
 "أحمد لم يكن مادحاً  
 كان يهجو عمى الآخرين  
 ويقرأ أحواله وأعماله في شمائل ممدوحه"  
 (أدونيس، الكتاب/ من أوراق سيف الدولة، ج2، ص533)

وهنا وإضافة لما أشار إليه الحويطات تمكن الإشارة إلى أن المتنبي إنما يتخذ من ثقافة التفاوض وسيلة في تعامله مع الآخر السلطوي، ولذا فإنه يحتكم لمبدأ التفاوض وفق "كلود ريمون"، في إنشاء عملية/ علاقة تفاوضية، تقتضي تبادل الخدمات مع الخصم السابق أو الحليف المستقبلي.

وفي الفصل الثالث (صراع الأنا والزمن) يعاين الحويطات صراع الشاعر/ المتنبي مع الزمن، وهنا فلا مندوحة من القول إن الزمن يمثل محوراً مركزياً من محاور القصيدة العربية، عبر صيرورتها التاريخية، بيد أنه عند المتنبي يمثل إشكالية كبرى، وحالة خاصة، ذلك أن حركية الزمن وتحولاته وتقلباته الدائبة، تحيط الشاعر بما يمكن أن يطلق عليه "سورة الزمن"، وتشعره بوطأة الزمن المأساوي، وتبدد اللحظة المرغوبة، فتقادم الزمن يمثل في فكر المتنبي تهديداً وجودياً/ الموت، وي طرح على الذات سؤالات الوجود، والحياة، والموت، فالزمن في استمراريته يجعل من الذات الشاعرة ذاتاً قلقة ومتوترة على الدوام، ومدفوعة إلى محاولة إنجاز مشروعها/ رؤيتها، يقول المتنبي:

أَمْثَلِي تَأْخُذُ النُّكْبَاتُ مِنْهُ      وَيَجْزَعُ مِنْ مُلَاقَاةِ الْحِمَامِ  
 وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَيَّ شَخْصًا      لَخَضَبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي

وفي إطار صراع المتنبي مع الزمن يشير الحويطات إلى مركزية قيمة الحب في قصيدة المتنبي، وهو في ذلك إنما ينزع عن قوسٍ يخالف خلالها جمهرة نقدة شعر المتنبي، على مرّ العصور، الذين يرون في حضورها في شعر المتنبي تقليداً فنياً متوارثاً وحسب؛ غير أن الحويطات يرى أن تكرار قيمة الحب بهذه الصورة اللافته يمثل في فكر المتنبي هروبا من زمنية التوتر والقهر والإحباط واللاجدوى، في حياته القلقة، ولذا فإن استدعاء تجربة الحب تكريس لقيمة الحياة في مواجهة الموت، وإشارة دالة إلى الحنين الدائب إلى زمن المرأة والحب والخصب والحياة.

لقد ظلت إحداثيات الزمن السالبة تمثل ضاغطة ثقيلة على نفس الشاعر، في ظلال تعدد/ تأخر إتمام مشروعه، فقد عانى المتنبي من ثقل هذا الزمن، فحاول من خلال شعره أن ينتفض في وجهه من خلال حركية ناجزة، تخرق خلالها الذات سورة هذا الزمن الثقيل، وذلك بصورة لافتة، تضي إلى الذات بعداً أسطورياً وتسارعياً لا يقرّ قراره دون بلوغ الغاية القصوى.

وفي الفصل الرابع (صراع الأنا والمكان) يغدو المكان تجلياً آخر من تجليات الصراع في شعر المتنبي، إذ يمتلك المكان في شعره قيمة فاعلة ومؤثرة في بنية النص الشعري، وذلك بوصفه قيماً وتجاوزاً وغربة في الآن عينه، كما يرى الحويطات، ويصبح المكان قيماً حين يمنع الشاعر/ الذات الفاعلة من بلوغ مأربها، في حين أنه يمسي غربة أو اغتراباً، حين يُجَلُّ الشاعر أرضاً ليس يرغبها، ولأن المتنبي مسكون ببلوغ غايته، فقد مثل المكان لديه فكرة مركزية، لا يمكن

له الانعتاق من إسارها، يقول المتنبي:

عَلَى قَلْبِي كَأَنَّ الرِّيحَ تَحْتِي      أَوْجُهَا جَنُوبًا أَوْ شَمَالًا

ويقول في موضع آخر:

لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالْعِرَاقِ      وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ أَنِّي الْفَتَى

ويشير الحويطات إلى أنَّ ثمة تحولاً مركزياً طرأ على علاقة المتنبي بالمكان، إذ إنَّ المكان والترحال الدائب وتخطي المكان الزاهن، تغدو مؤشرات دالة على رغبة الشاعر بأن يجعل من تجاوز المكان آلية/ استراتيجية دفاعية، تعكس حركة الذات الفاعلة والدائبة في صراعها مع الحياة، وهنا تصبح الإبل والخيول مثلاً- أقنعة نسقية للذات الشاعرة، التي تريد تجاوز الراهن وبلوغ المأمول، على اعتبار أنها، أي هذه الأقنعة، تمثل رموزاً تحيل إلى الذات، وتعدّ معادلاً موضوعياً لها.

وفي الفصل الخامس، يجلي الحويطات تمثيلات بنية الصراع في بنية النص الشعري عند المتنبي، وهنا تجسد لامية المتنبي "لياليَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُوءٌ" نصّاً قلَقاً، يقام أوده كما يرى الحويطات على متضادات/ تجلي صورة الصراع الذي يعتمل في نفس الأنا الشاعرة، بين الضوء/ الفجر والعممة/ الليل، والنحن (المسلمون)/ الروم، والأنا الشاعرة/ المتنبي والحساد، في حين أنَّ القصيدة التي مطلعها "فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُدَمِّمٍ" تعكس لحظتين فارقتين، تبرزان قلق الذات وإشكالية المصير في فكر المتنبي، وهما على أي حال اللحظة السالبة/ التي صنعها سيف الدولة، الذي يمثّل السّلطة العمياء، واللحظة التنويرية/ التي يتشوّق إليها المتنبي في بلاط كافور الإخشيدي، إذ تعكس اللحظة التنويرية في شعر المتنبي رغبته الملحة في تخليق صورة "النموذج البديل"، وفي هذا السياق ذاته ينتخب الحويطات ميمية المتنبي الذائعة، التي تمثل تحولات الشاعر، وانقلابه على سيف الدولة، وصراعه معه بعد تحولاته الطارئة/ السالبة تجاه الشاعر المتنبي.

وفي هذا السياق يشير الحويطات إلى ما أسماه "بلاغة التضاد" في عددٍ من القصائد، لعل أبرزها القصيدة التي مطلعها "الْحُزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ"، وهي قصيدة تتأسس على طائفة من الثنائيات الضدية، التي تتجلى في مستويات القصيدة المختلفة صورةً شعريّةً ولفظاً وبناءً فنيّاً، لتعكس حالة الشاعر الذي غدا نهباً بين نموذجين إنسانيين، يسعى الشاعر إلى تخليد الأوّل/ فاتك، وطمس/ تشويه صورة الثاني/ كافور.

وأخيراً، فيشبه أن يكون لازماً أن يعلن صراحاً أنَّ هذا الكتاب، استطاع، والنظرية النقدية العربية تعيش إشكالات كبرى، أن يخلق هامشاً بحثياً جديداً في تجديد "ذكرى أبي الطيّب" بلغة طه حسين حين كتب "تجديد ذكرى أبي العلاء"، مما يطرحه من طروحات نقدية جادة، غير أنَّ على المرء أن يذعن لقول مؤداه أن بعضاً أو قل كثيراً من أسرار شعر المتنبي لما تزل عصية على الكشف، غامضة أمام كل هذه القراءات المتعاقبة.

(\*) مفلح الحويطات، شعريّة الصّراع: مقارنة نصّية في شعر المتنبي، الإمارات، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، ط1،